

الصورة الأدبية وإشكالية تحديد المصطلح

د. خالد بوزياني قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة عمار ثليجي الأغواط

ظل مفهوم الصورة الأدبية يمثل، ومنذ زمن بعيد، المحور الأساس الذي تدور حوله كلّ محاولة لفهم أسرار الفعل الإبداعي في الأدب، ومن ثمّ، فقد أدرك دارسو الأدب، حينما تعرّضوا إلى طرق التصوير الفني - مع تعدّدها وتباينها - أن الأدب من دون الصورة والتصوير، لا يعدو أن يكون سوى ضربا من الكلام الذي ألف الناس قوله، في أثناء ممارستهم الإبلاغية، أو سماعه في أثناء علاقاتهم التواصلية.

ولا يكاد يتصور نص أدبي من غير صورة أدبية، أو تستساغ قصيدة، من دون أن تنهض في الصورة، أو تأخذ من آليات التصوير بطرف، حتى إنّّه ليعتقد أن كلّ قصيدة صورة، وأنّ كلّ صورة قصيدة، وعلى أساس هذه العلاقة المتلاحمة التماهية، فإن دراسة الأدب، في غياب دراسة جادة للصور، يعتبر ضربا من العبث، وهي الحقيقة التي أدركها البلاغيون - قديما وحديثا - في مسارهم النقدي، وتمثلوها في تنظيرهم الجمالي.

أما الإحاطة بالصورة الأدبية، ماهيةً وتعريفًا، فإن ذلك لشبيهه بالسراب يحسبه الظمآن ماء، قد تعددت فيها الأقوال وتشعبت فيها الأحوال، ولم يكن منتهى الأمر فيها إلا علامة استفهام كبرى، يتردد صداها، "لكن.. ما الصورة الأدبية؟؟"

لأدراك مدى تشعب مفهوم الصورة الأدبية، وفهم مدى العنت الذي يلاقيه المشتغلون في ميدانها، نستحضر مقالة (سيسيل دي لويس)، لعلنا نلتمس فيها تفلُّتا وسلوى، يقول دي لويس: "وعندما نغمس في الحياة الغامضة للصورة الشعرية، فتلك عقوبة لمحاولتنا سبر غور الصورة بأمعان والطوف على سطحها، والعزاء الوحيد لنا هو أن الشعراء كانوا هناك قبلنا"¹.

إن ملفوظ الصورة ملفوظ مكرس لشمولية المصطلح، فهي تضم كلّ الأشكال البلاغية التصويرية، من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز ورمز وأسطورة، ذلك الذي ركزت عليه البلاغة الكلاسيكية التي ما فتأت تتقلص وتتضاءل، لتتقلص الصورة شيئاً فشيئاً، وتنحصر، في نهاية أمرها، في الاستعارة والكناية. يقول (جيرار جينيت Gerard Genette): "البلاغيون الجدد يقصرون البلاغة على الاستعارة التي هي مرتكز مبدأ (التشابه)، وعلى الكناية التي هي مرتكز مبدأ (التجاور) .. وتاريخ البلاغة، منذ (كوراكس) إلى يوم الناس هذا، هو تاريخ تضيق عام، حين حوّلت البلاغة - تدريجياً - من الفصاحة إلى الشعر..²".

ونرى (سيسيل دي لويس)، بعد أن عرّف الصورة بأنها "رسمٌ قوامه الكلمات المشحونة بالأحاسيس والعاطفة"³، يعود مجدداً إلى دائرة الحيرة فيقول: "كلا، إنّ هذا التعريف، لا ينفع البتّة، وعلينا أن نبدأ البحث من جديد، نسأل أنفسنا السؤال البسيط: لماذا يثير التشبيه عواطفنا؟ .. ما سرّ هذه المتعة التي نجدها في لغة المجاز؟ ..

لماذا نغرق في اللذة حين نتصور جبيناً كالوردة الحمراء ؟ .. لماذا يعاد بناء توازننا النفسي عندما نلاحظ مع الشاعر (أن الوادي يزداد ظلاماً، والنسيان يزداد إظلاماً؟)⁴.

وهكذا لا نجد (دي لويس) يخرج بتعريف دقيق وواضح، سوى انغماساً في التمثيل واستغراقاً في التصوير، بل إنّ الأمر لا يعدو أن يكون حذقة كلامية تزداد في تعقيد المصطلح، وإغماضه.

ويزيد (غاستون باشلار - Gaston Bachelard) من تعقيد مفهوم المصطلح حين يقول: "لا يمكن درس الصورة إلا بالصورة"⁵. فيخلط (موضوع) البحث بـ (أداة) البحث.

إنّ مفهوم الصورة، على هذا الشكل من الفهم، ليكاد يفلت عن التحديد، حتى ليصبح الاعتقاد باستحالة أية محاولة لتحديدها، بل إنّ أية محاولة للتحديد ستكون بمثابة القضاء على الصورة، وهذا يعني أن الصورة الأدبية، على شموليتها واتساع مفهومها، لا يمكنها أن تمنحنا مجالا لتعريفها التعريف الدقيق، وهذا ما يعيدنا إلى بداية الإشكالية للتحديد المصطلحي لـ (الصورة الأدبية).

يقول (فرانسوا مورو François Maureau): "لفظة صورة من الألفاظ التي يجب على دارس الأدب أن يستخدمها بحذر وفطنة خاصين، فهي لفظة غامضة وغير دقيقة معاً، غامضة لإمكانية أن تفهم بمعنى عام وغائم وواسع جداً، وبمعنى أسلوبى صرف، وغير دقيق، بل إنّ استخدامها في المجال المحدد للبلاغة مائع، وتعريفه بالغ السوء"⁶.

ويرى الدكتور (جابر أحمد عصفور) أن الصورة "طريقة خاصة من طرق التعبير، أو وجه من أوجه الدلالة، تنحصر أهميتها في ما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير. لكن أياً كانت هذه الخصوصية، أو ذاك التأثير، فإنّ الصورة لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته. إنّها لا تغير إلا من طريقة عرضه، وكيفية تقديمه"⁷.

إذا: فالصورة غرض أسلوبِي يحافظ على سلامة النص من التشويه، ويقدم المعنى بتعبير رتيب، بحيث تعدّ طريقة لاستحداث خصوصية التأثير في ذهن المتلقي، بمختلف وجوه الدلالة التي يستقيها من النص، في منهج تقديمه، وكيفية تلقيه، وما يحدثه ذلك عنده من متعة ذهنية، أو تصور تخيلي نتيجة لهذا الغرض السليم.

وترى (إرين تانبا ميكز - Irène Tamba-Mecz) أن كلمات مثل: الصورة البلاغية - المجاز - التشبيه - الاستعارة - الصورة الذهنية (Image) هي مترادفات محيرة، عندما نضع نصب أعيننا أن المصطلحات الأربع الأولى كانت لها في البلاغة القديمة مدلولات مختلفة، وأما المصطلح الأخير فينتهي إلى ميدان علم النفس.⁸

وعندما نتأمل مثل قول (رولان بارث - Roland Barthes): "الصورة هي ما أعتقد أن الآخر يفكر في" 9، أو مثل قوله: "الصورة عبارة عن خدمة عسكرية اجتماعية" 10، أو: "الصورة الجيدة هي صورة قبيحة خفية مسمومة" 11، يغدو من الصعب فهم المقصدية من الصورة، خاصة، إذا أقررنا بحقيقة أن هذا التوجه القلق في تحديد مصطلح (الصورة) قد يركز على نوع التفكير والتوجه والمقولات الفلسفية والجمالية التي يعتقدها المصطلح بمحاولة إعطاء حدّ وتحديد للصورة الأدبية.

وهناك إشكالية أخرى، لا تقل حدة عن الإشكالية الأولى، وتتعلق بتحديد الفرق بين (الصورة البلاغية) و (الصورة الذهنية)، فما هو الفرق بين المصطلحين (Image) و (Figure) في البلاغة الأوروبية؟ وكيف ترجم إلى اللغة العربية؟

1 - الصورة البلاغية Figure Rhétorique :

تعني كلمة (صورة - Figure) في اللاتينية المعاني الآتية :

- الصورة (هيئة / بنية / شكل / شكل هندسي / صورة أسلوبية / كل جسم أو هيئة / كل مخلوق / كل تجلّ في صورة ما ..)¹².

والكلمة بهذا المعنى، تقترب من المعاني التي نجدتها في المعاجم العربية، حيث عرفت (الصورة) كالآتي :

- عند ابن سيده (ت. 458 هـ) : "الصورة في الشكل" ¹³.

- عند ابن الأثير (ت. هـ) "الصورة، ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته، وعلى معنى صفة، يقال: صورة الفعل كذا وكذا، أي هيئته" ¹⁴.

- عند ابن فارس (ت. 395 هـ) : "الصورة، صورة كل مخلوق، والجمع صور، وهي هيئة وخلق" ¹⁵، ومنه قوله تعالى: "الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك" ¹⁶، وقوله جل وعلا: "الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء، وصوركم، فأحسن صوركم" ¹⁷.

- عند أبي البقاء الكوفي (ت. هـ) : "الصورة بالضم : الشكل، وتستعمل بمعنى النوع والصفة.. وقد تطلق على المعاني التي ليست محسوسة، فإن للمعاني ترتيبا أيضا وتركيبا وتناسبا، ويسمى ذلك صورة، فيقال: صورة المسألة، وصورة الواقعة وصورة العلوم الحسابية" ¹⁸.

- الجاحظ (ت. 255 هـ) : شكل وهيئة، يتضمن قوله: "فإنما الشعر صياغة وضرب من النسج، وجنس من التصوير" ¹⁹.

والصورة، في المعجمية الغربية الحديثة، تأخذ المعاني الآتية:

- الصورة : "هي (موتيف - Motif) تغير الأشكال، فصورة القمر في الضباب وبين السحب، يأخذ أشكالا غريبة، والصورة بهذا المعنى، هي الأشكال الخارجية" ²⁰.

- الصورة: "تأخذ المعاني الآتية: (تصوير/ بنية /شكل /صورة/أسلوب/ شكل أسلوب/

تخيل.. " ²¹.

أما الصورة البلاغية Figure Rhétorique ، فتعني: الشكل الخاص الذي يعطي للمعنى قوة التأثير، ليكون أكثر أصالة وإيجاء، وتنقسم الصور في الموروث البلاغي الأوربي إلى قسمين²²:

1 - صور الفكر - Figures de pensée : كصيغ التعجب مثلاً.

2 - صور الكلمات - Figures de Mots : كالاستعارة والمجاز.

كما يمكننا مطالعة مادة : تصويري - Figuratif ، التي تعني المعاني التي يمكن أن تستعمل استعملات تصويرية، أو رمزية، كالشعر التصويري - Poésie Figurative الذي يرسم فيه الشاعر شيئاً ما عن طريق أنساق الشعر²³، وهذا النمط كان قد ساد عند بعض شعراء الباطنية، أواخر العصر العباسي، زمن (الفاطميين)²⁴، واشتهر في الغرب، عند الشعراء السرياليين²⁵.

ونجد في معجم المصطلحات الأدبية²⁶ الكثير من الدلالات التي تحملها كلمة صورة -

Figure²⁷ ، فهي تعني :

1 - الشكل المرئي: ويدخل فيه :

- شكل خارجي، وموتيف، وتَجَلٍّ .

- في الفنون الجميلة طريقة: عرض شيء ما، في شكل مرئي، كعرض موقف، أو فكرة. وهي بذلك قريبة من المصطلحات الدالة على صورة الأشكال المرئية، أو ما يعرف

بـ (L' Image)

- تقديم فكرة مجردة عن طريق تعبير حسي .

- صور سينمائية ومسرحية، كعرض شخصيات أو مشاهد أو مناظر أو لوحات زيتية،

أو ما يعرض في الأوبيرة.

- خلق الصور الرمزية la mise en figure ، ويدخل في هذا النوع:

1 - الميثة (le mythe) ، والرمز (le symbole)

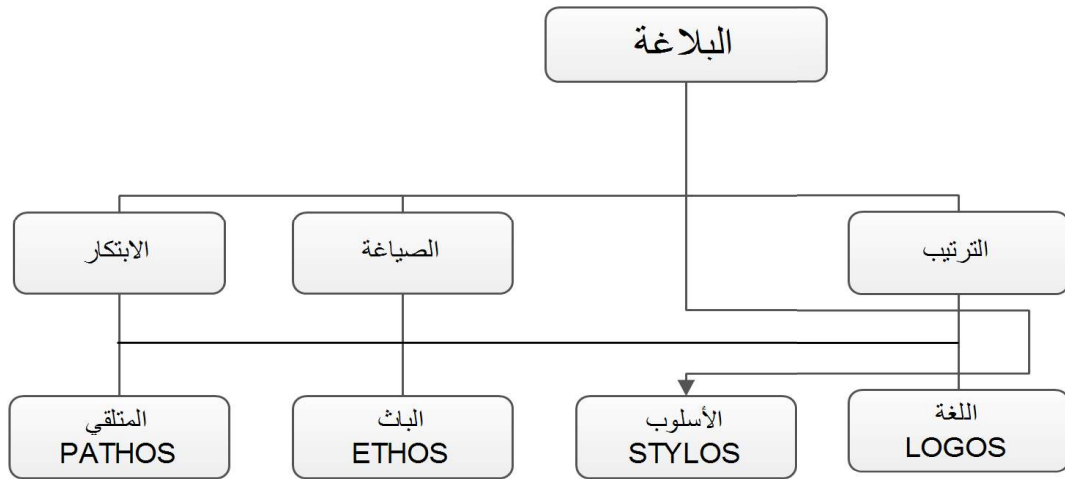
2 - الأشكال البلاغية: ويدخل في هذا : الاستعارة والكناية والمجاز والتشبيه.

3 - الشكل الذي يتخذه الانزياح بين ما يفكر فيه الشاعر، وبين الذي يكتبه.

وعلى هذا الأساس، فإنّ مصطلح (Figure) لم يثبت على دلالة واحدة، كما كان في بلاغة الكلاسيكيين، أي، بمعنى: الصور البلاغية - Figures Rhétoriques، وإنما ازداد توسعا حتى احتوي جميع أشكال الصورة في الخطاب الأدبي²⁸، إلى جانب الخطابات الأخرى.

ومن هنا ندرك مدى اتساع مجال التحديد في (الصورة) ، ونفهم ما كان يقصده (جيرار جنيت) عندما قال: "إن تاريخ البلاغة منذ كوراكس، إلى أيامنا هذه، هو تاريخ تضيق عام"²⁹، تضيق على مستوى تحديد (الصورة) وحصرها، قصد الإلمام بجميع الحالات التي لها علاقة بالبلاغة في المقام الأول، بل على البلاغة فقط، لو استطاع البلاغيون إلى ذلك سبيلا، ولعل سعي البلاغيين المعاصرين إلى قصر (الصورة) على (الاستعارة) ، و(الكناية) ، دليل على هذا المسعى.

وسوف نرى، في الفصول الأولى، تنوع مجموع المعاني التي تحتويها كلمة (صورة) ، ثم أهم طرق تصنيف الصور البلاغية، مع (دي مارسيه - Dumarsais) و(فونتانييه - Fantanier). مع مراعاة أنّ البلاغة كانت تدرس هذه الصور ضمن ما يسمى بـ (الصياغة - Elocutio)، كما هو مبين في الشكل:



وعلى هذا الأساس، تعتبر البلاغة مجال دراسة الصورة البلاغية من مهام (الصياغة - Elocutio).

سنقتصر، مبدئياً، وإجراء منهجي خالص، على الصور البلاغية وأشكالها المعروفة، كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز اللغوي والمجاز المرسل .. متحاشين المعاني التي يمكن أن يعينها مصطلح (الصورة) في صورته العامة الفضفاضة، وعليه، فسوف نستعمل مصطلح (صورة بلاغية) ترجمة لـ : Figure Rhétorique، ومصطلح (صورة ذهنية) ترجمة لـ : Image، ولننظر - أولاً - إلى ما تعنيه كلمة (الصورة الذهنية).

إنّ الصورة الذهنية - L'Image من المفاهيم البلاغية التي لم تسلم من اللبس والشمولية. والناظر إليها في اللاتينية، يجدها (Imago)، أي (المحاكاة)، وهي، من حيث تركيبيتها، تقوم على السابق (Im)، ومن كلمة (Imitor)، وكلمة (Imago) مرتبطة مرفولوجيا وداليا بكلمة (Similitudo) المكونة، هي الأخرى، من السابق (Sim)، وكلمة (Similis)³⁰، للدلالة على التشبيه والتماثل.

ويربط (جابر عصفور) الصورة بالخيال قائلاً: " إنّ علاقة الاشتقاق بين كلمتي (Imagination)، و (Imagery) تشي بالصلة الوثيقة بين كليهما، وتوضح، بشكل - ضمني - أن أيّ مفهوم للصورة الشعرية لا يمكن أن يقوم إلا على أساس مكين، من مفهوم

متناسك للخيال الشعري نفسه، فالصورة هي أداة الخيال، ووسيلته، ومادته الهامة التي يمارس بها، ومن خلالها فاعليته ونشاطه"³¹.

لقد استخدمت كلمة (صورة)، في الدراسات الأدبية الغربية تحت جملة من المصطلحات، غالبا ما كانت نتيجة انتماء إلى مذهب إيديولوجي أو تيار فني أو اتجاه جمالي، لذلك، لا نصادف (وَحْدَةً) اصطلاحية نهائية في الدراسات الأوروبية. ففي فرنسا، نجد مصطلح (الصورة الأدبية - L'image littéraire)، وفي إنجلترا، نجد مصطلح (الصورة الشعرية - Image poetry)، وفي روسيا يستعمل مصطلح (الصورة في الفن - L'image dans l'Art)، إلى جانب مصطلح (الصورة الشعرية)³².

وعلى العموم، فإن لمصطلح (الصورة الذهنية) مدلولات مختلفة، لكنها تدور في مجملها في:

1 - جدلية التأثير والتأثير، بين المرسلات الأدبية، وباقي الفنون الجميلة، والفنون التشكيلية.

2 - المقاييس القائمة على تحديد بنية العمل الفني، ومكوناته.

3 - التعريفات اللغوية، والفلسفية، والنفسانية.

وقد استعمل مصطلح الصورة الذهنية - Image، في الخطابات الأدبية المختلفة، في سياقات أخرى كأن نقول مثلا:

(صورة أسبانيا في الأدب الفرنسي)

(L'image de l'Espagne dans la littérature Française)

أو: (صورة الثورة الجزائرية في الأدب العربي)

L'image de la révolution algérienne dans la littérature Arabe

أو: (صورة الشرق في الأدب الأوربي)

33. L'image de l'Orion dans la littérature arabe

الصورة والخيال: ويدرج تحت هذا المعنى عدة أنواع للصورة، منها³⁴:

1- الصورة المحسوسة - image concrètes :

وهي تصوير كل ما هو مرئي ومحسوس، ومثال ذلك: تصوير وضعية السحب في السماء، في قصيدة "غروب الشمس - Soleil couchants" لـ (فكتور هوجو - Victor Hugo)، عندما وصفها بالقصور.

2- الصور التجريدية Image abstraites :

وهذا ما نجده غالبا في الصور المستعملة عند الشعراء البرناسيين والرمزيين، ومن صورهم "سلام من ضياء - une paix de lumière"، أو "حلم من ضياء - un rêve de lumière

أو كقول شارل بودلير Charles Baudelaire -

أنا جميلة، أيها الفاني

كحلم من حجر

Je suis belle oh mortel

Comme un rêve de pierre

3- الصور الانطباعية - Images impressives :

وهي الصور التي لا تقوم على المشابهة الموضوعية في العلاقة، بين المشبه، والمشبّه به، كحقيقتين معروفتين، ولكن على المشابهة الذاتية القائمة بين شيء معروف، وآخر لا تربطه به أية علاقة شكلية، كالوزن والكتلة واللون، وتنتج الصورة مما يتولد عند الشاعر، من أحاسيس وعواطف، تحقق تأثيرا متماثلا لما ينتجه الأول، مثل قول (شارل بودلير):

tes yeux sont la citerne où boient mes ennuis

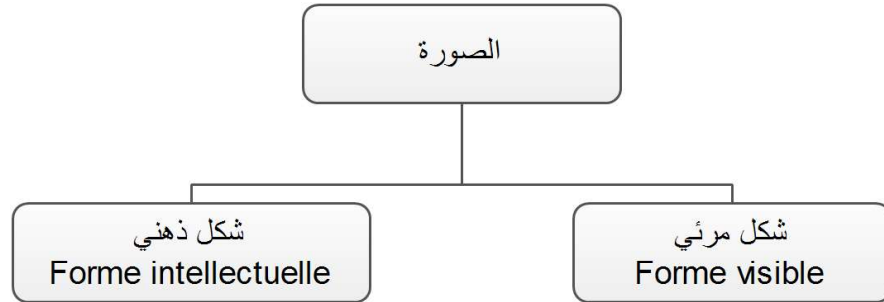
عيناك وعاء تشرب منه أحزاني

حيث لا توجد أية علاقة بين العيون ووعاء الماء، لكن هذه العلاقة يوجد لها التأثير الانفعالي بالموقف الذي يعيشه الشاعر لحظة الإبداع.

4- الصور المجسمة - l'images plastiques :

وهي الصور التي تتجلى فيها علاقة المشابهة في الشكل، والكتلة، والأبعاد المرئية، والحدود، بين المشبه، والمشبّه به.

ويرى (ستيفان ألمان - Stephen Ullmann) أنه من الأحسن أن نميز بين الصورة، من حيث هي تعبير ألسني عن القياس، والصورة التي بمعنى التخيل الذهني³⁵، أي أن تكون الصورة تعبيراً لغوياً عن تماثل ما، أو صورة ذهنية يوكل أمرها لدور الخيال، ذلك الذي يجسده الشكل :



1 - الشكل المرئي :

يقول (سيسيل دي لويس) في هذا الشأن: "إن الطابع الأعم للصورة هو كونها مرئية، وكثيراً من الصور التي تبدو غير حسية، لها مع ذلك، في الحقيقة ترابط مرئي باهت ملتصق بها"³⁶.

والصورة في شكلها المرئي، لا تخرج عن نطاق التجسيم، فهي تتأسس على تشبيه شيء مرئي بشيء مرئي آخر، شريطة المبالغة، وهنا، لابد أن نقف عند تمييز البلاغة الأوربية بين نوعين من التشبيه:

• الأول : وأطلقوا عليه مصطلح La comparaison .

• الثاني : وأطلقوا عليه مصطلح La similitude .

وميزة التشبيه الأول أنه لا يمكن أن نطلق عليه لفظ (صورة) ، كقولنا: "هي جميلة كأختها" ، و"هو قوي كأبيه" ، لأن ذلك تشبيه حقيقي .

ويسمى (السكّاتي) هذا (تشابها وليس تشبيها) ، وذلك لتساوي المشبه والمشبه به في جهة التشبيه، فيصبح كلّ واحد منهما مشبها ومشبه به، لتفادي ترجيح أحد المتساويين، ويظهر من هذا، أن التشبيه، إذا وقع في باب التشابه، صح فيه العكس، فصَحَّ أن يقال : لون هذه العمامة كلون تلك³⁷ .

أما النوع الثاني الذي ينطبق عليه لفظ الصورة، فهو الذي يبنى على أساس المبالغة، مثل تشبيه وجه الحسناء بالبدر، أو تشبيه غضب الرجل بالرعد، إلى غير ذلك من التشبيهات³⁸ .

وقد ترجم الدكتور (نجيب إبراهيم) ، إلى اللغة العربية، مصطلح La comparaison إلى التشبيه الحقيقي، ومصطلح La similitude إلى التشبيه التمثيلي³⁹ ، وفي اعتقادي أن في ترجمة التشبيه التمثيلي لبس، خاصة، إذا عرفنا أن التشبيه التمثيلي في البلاغة العربية، له معنى آخر، فهو تشبيه صورة بصورة، يكون وجه الشبه فيها منتزع من متعدد، كقول بشار⁴⁰ :

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

ولذا أرى أنّ ترجمته إلى التشبيه (التمثيلي) بدل (التمثيلي) أرفع للبس وأقرب إلى النفس، وإبعاد لكل خلط بين ما اقترح، وبين ما يعرفه الناس من هذا التشبيه.

وإذا كان التشبيه صورة، فهل يتموقع دائماً في الشكل المرئي؟
لقد رأينا أن التشبيه لا يمكن أن يكون صورة إلا إذا توفر فيه شرط المبالغة، وهذه (المبالغة) تخرجه أحياناً من الشكل المرئي، خاصة في المشبه به الذي هو، عادة، شيء غير حسي، وفي الشعر العربي كثير من الأمثلة في هذا الشأن.

وقد توجد صور مرئية، وسمعية في الوقت نفسه، كقول امرئ القيس⁴¹:

مَكْرٍ مَفَرٍ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَا كَجَلُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ

ففي هذا تشبيه، جمع الشاعر بين ما هو مرئي، متمثلاً في الجواد، في أثناء كره وفره، وانحدار الصخر من أعلى الجبل، وبين ما هو سمعي، متمثلاً في الصوت الذي يحدثه وقع حوافر الجواد، والصوت الذي يحدثه انحدار الصخر.

2- الشكل الذهني:

ويتمثل في المقدرة على التخيل، وخلق الصور من الأشكال المرئية، ولمعرفة ذلك لابد أن نتعرّف إلى الخيال.

لقد عرفت المعاجم العربية الخيال كالاتي: "التخيّل من الظن، خال الشيء، يخال خيلاً وخيّلة وخيّلاً وخيّلاً وخیلاً وخیلاً ومخالة ومخيّلة ومخيّولة: ظنّه"⁴².

وفي معجم مقاييس اللغة: "خيّل: الخاء والياء واللام، أصل واحد، يدل على حركة في تلوين، فمن ذلك الخيال، وهو الشخص، وأصله: ما يتخيّله الإنسان في منامه، لأنه يتشبه ويتلون، ويقال خيّلْتُ للناقة، إذا وضعت لها خيلاً يفرع منه الذئب، فلا يقربه"⁴³.

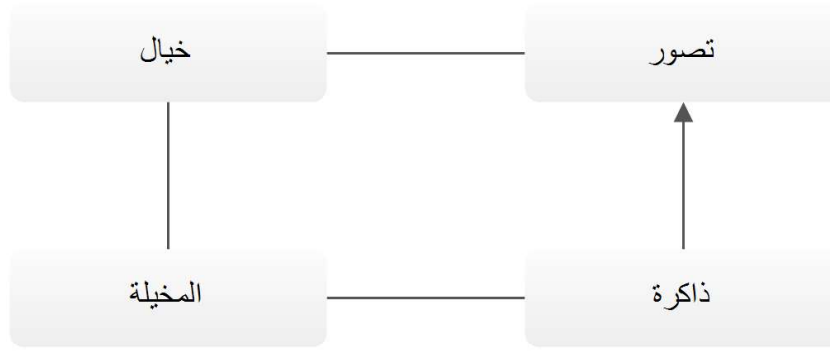
والمعنى من كلّ هذا، أنّ الخيال عند العرب هو صورة ذهنية من صنع الخيال وهو مرادف للتوهم، ففي الصحاح: "تصوّث الشيء، توهمت صورته فتصوّر لي"⁴⁴. والصورة الذهنية نوعان:

- النوع الأول : يتصل بـ (عملية التصور) ، حيث يلجأ فيه الشاعر إلى ما تحتويه الذاكرة من تصورات للأشياء المرئية والمسموعة، والمحسوسة بصفة عامة، فلو قلنا مثلاً : "قدم الفارس فوق جواده الأبيض" لاستطاع كلّ واحد منا أن يعيد تصور هذه الأشياء في ذهنه، مادمت مخزنة في ذاكرتنا .

ويرى (حازم القرطاجني) أن كلّ شيء له وجود خارج الذهن فإنّه، إذا أدرك، وجدت له صورة في الذهن، مطابقة للشيء الذي أدركه من قبل، فإذا أراد أن يعبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك، وضع لها اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في إلهام السامعين⁴⁵.

ويتساءل جيل دولوز قائلاً: "غير أننا، إذا تساءلنا، أين سيبحث الشعور عن هذه الصورة الذكرى، والصورة الحلم، وحلم اليقظة التي يستدعيها الشعور حسب حالاته، .. ستحمل الصورة الذكرى علامة الماضي التي تميزها عن صورة أخرى، أو ستحمل الصورة الحلم العلامة المتميزة الدالة على مستقبل زمني، .. لهذا، كان بوسعنا أن نشبه الصورة الكامنة بصورة ذهنية بصورة ذكرى، وصورة حلم، وصورة يقظة"⁴⁶.

- النوع الثاني : تتصل بـ (عملية التخيل) ، أي تصوّر أشياء لا وجود لها في ذاكرة الشاعر، وهنا يتجلى الابتكار الخلاق، وعليه، فإنّ الصورة، بهذا المعنى تغدو على الشكل الآتي:



وعلى هذا الأساس، فإن كلمة (Image) تعني الصورة الذهنية، أو الخيال، بوصفها نتاج المخيلة (L'Imagination)، والعملية التي تقوم بها المخيلة تسمى تخيّل، ثم إن البلاغيين، لم يتطرقوا إلى الصورة بهذا المعنى، وإنما تناولوها بالمعنى البلاغي. إذاً : فليس هناك من شك، أن ما كانت تقصده البلاغة التقليدية هي الصورة البلاغية (Figure) لا الصورة الذهنية (Image).

ولتقريب هذا المعنى، ننظر إلى هذا المشهد القرآني:

"طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ"⁴⁷.

إنّه لا يمكننا أن نتفق جميعاً، على تشكيل صورة موحدة لهذه الشجرة، فكل منا سيتخيّلها حسب رؤية خاصة، بالاعتماد على المخيلة، فلا أحد رأى هذه الشجرة، ولا رأى الشياطين، ولا رؤوسها، ولا شيئاً من هذه الجزئيات المكونة لهذه الصورة موجود في ذاكرتنا.

إذاً، ف (التصور) هو مجموع التصورات المخترنة في الذاكرة، والتي تتوفر على تجارب مرت بالإنسان في فترات حياته، بصفة مشتركة بالناس الذين تربطهم به علاقات اجتماعية ما، أما (التخيّل)، فهو عملية تقوم بها المخيلة، ولا علاقة للذاكرة بها، إلا في جزئيات قليلة، وهنا، قد اختلف مع الدكتور (مصطفى ناصف)، عندما أخلط بين عمليتي (التصور) و(التخيّل)، جاعلاً من الذاكرة مصدراً لهما معاً، فهو يقول: "وليس

الخيال نفسه إلا عملا من أعمال الذاكرة، إذ لاشيء، مما نتصوره، لم نكن نعرفه بوجه ما، من قبل⁴⁸.

لنستمع إلى (ريتشاردز)، وهو يميز بين التصور والتخيل، يقول: "فعندما نقول: إننا نرى صورة، وربما نعني، أننا نرى السطح المغطى بالأصبغة، أو أننا نرى صورة هذا السطح التي انطبعت على شبكة العين، أو أننا نرى سطوحا معينة، أو مجوما معينة، فيما يسمى بفضاء الصورة، هذه الاحساسات متميزة تماما، ففي الحالة الأولى: نتكلم عن مصدر الحاضر، وفي الحالة الثانية: نتكلم عن أثر الحاضر المباشر على شبكة العين، وفي الحالة الثانية: نشير إلى استجابة معقدة، تتكون من إدراكات وخيالات، تحتاج إلى تدخل، بين ذهنية تركت بفضل خبرة سابقة، وأثارها الحاضر الآن"⁴⁹.

ويرى (ريتشاردز) أيضا، أن للخيال ستة معان متميزة، وهي⁵⁰:

1- الخيال، كإنتاج صورة حية، وهي عادة، صور بصرية، وهذا النوع هو الأكثر شيوعا، والأقل أهمية.

2- وقد يقصد بالمجاز غالبا، استخدام لغة مجازية، كالمجاز والتشبيه.

3- وهناك معنى أضعف، هو ذاك الذي تولد فيه ثانية، حالات الآخرين الذهنية، خاصة حالتهم العاطفية، بصورة متجانسة.

4- الإبداعية، وذلك في ربط عناصر، لا ترابط بينها في الأصل.

5- الربط بين الأشياء التي يظن عادة أنها متباينة، والمتمثلة في الخيال العلمي.

6- وهو الذي تحدث عنه كلوربيج، في الخيال الثانوي.

ينطلق (ريتشاردز)، في تحديده لمفهوم الخيال، من النظرية (الفرويدية) القائلة باللاوعي، فعنده، يكون الشاعر دون وعي من مجموعة مختارة تفوق قوة العادة، حيث تتحرر الدوافع التي يوقظها، بفضل الوسيلة ذاتها التي أثّرت بها من المحظورات التي

تشجعها الظروف العادية، وحيث يستبعد ما هو غريب، وغير ذي صلة، ويفرض على المجال الواسع للدوافع البسيطة الناجمة نظاماً، تسمح مرونتها بقبوله⁵¹.

ويقسم أحمد أمين الخيال إلى ثلاثة أنواع⁵² :

1- الخيال الخالق: وهو الذي يخلق العناصر الأولى التي تكتسب من التجارب صورة جديدة في الحياة المعقولة، فإن فنتها، كانت وهما.

2- الخيال المؤلف: وهو الذي يؤلف بين مناظر مختلفة، فالشاعر يشعر بالشيء وأثره في نفسه، وهذا يستدعي عنده صورة أخرى أثارت مثل ذلك الشعور من قبل، فيؤلف بين الشعورين بضرب من التشبيه.

3- الخيال الموحى: ويختلف عما قبله من الخيال المؤلف، بأنه يدلّ بأن يقرن صورة بصورة، يفيض على الصورة التي يراها صفات، ومعاني روحية تؤثر في النفس.

ويرى جابر عصفور "أن العلاقة الاشتقاقية بين كلمتي

(Imagination) و (Imagery) تدل على الصلة الوثيقة بين كليهما، وتوضح ضمناً، أن كلّ مفهوم للصورة الشعرية لا يقوم إلا على أساس مفهوم متماسك للخيال الشعري نفسه، وبهذا، تصبح (الصورة) أداة ووسيلة ومادة للملكة الخيال"⁵³.

الهوامش:

¹ - سي دي لويس، الصورة الشعرية ترجمة د/ أحمد ناصف الجنابي - مالك ميري - سلمان حسن إبراهيم دار الرشيد للنشر - الجمهورية العراقية - بغداد 1982 ص 159

² - Gerard Genette ; **Figure III** éditions du seuil 1972 page 24.

³ - سي دي لويس، الصورة الشعرية ص 23

- ⁴ - المرجع نفسه ص26
- ⁵ - غاستون باشلار شاعرية أحلام اليقظة ترجمة جورج سعد الطبعة الثانية المؤسسة الجامعية للنشر بيروت - لبنان - 1993 ص51.
- ⁶ - فرانسوا مورو، الصورة الأدبية ترجمة د/ علي نجيب إبراهيم دار الينابيع للنشر - دمشق - الجمهورية العربية السورية 1995 ص20.
- ⁷ - جابر أحمد عصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي الطبعة الثالثة المركز الثقافي الغربي بيروت الدار البيضاء ص 392
- ⁸ - voir Irène Tamba- Mecz ; **Le Sens Figuré** Vers une théorie de l'énonciation Figurative ; Presses Universitaires de France ; 1^o édition 1981 page 19
- ⁹ - رولان بارت هسهسة اللغة ترجمة منذر عياش الطبعة الأولمركز الآباء الحضاري 1999 ص486
- ¹⁰ - المرجع نفسه ص187
- ¹¹ - المرجع نفسه ص187
- ¹² - voir page web. **Dictionnaire des Termes Littéraire matière FIGURE**
- ¹³ - ابن منظور ، لسان العرب مادة صورص373
- ¹⁴ - نفس المرجع والصفحة.
- ¹⁵ - أحمد ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام هارون المجلد الثالث دار الجيل بيروت - لبنان الطبعة الأولص320.
- ¹⁶ - سورة الانفطار الآية (7 - 8)
- ¹⁷ - سورة غافر الآية (64)
- ¹⁸ - أبو البقاء أيوب الكفوي ، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية تحقيق د/ عدنان درويش ومحمد المضري الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة بيروت - لبنان - 1993 ص559

19 - الجاحظ, الحيوان, الحيوان تح. عبد السلام هارون دار الجبل - بيروت - ط. 1996

132/3

²⁰ - voir page web. **Dictionnaire des Termes Littéraire** matière **FIGURE**

²¹ - voir **Grand Larousse de la langue française** Librairie Larousse 1975 Paris – France – tome III matière **Figure** page 1945

²² - Ibid

²³ - Ibid Page 1944

²⁴ - مثل ذلك قصيدة في (آل البيت) ، مجهولة النسب، أو قد تنسب لشاعر فاطمي، يلقب بالاسكندراني. ينظر في هذا الشأن كتاب: الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، عبد الحميد جيدة، مؤسسة نوفل، بيروت، ط. 1، 1980، ص. 81.

²⁵ - ينظر المرجع نفسه، ص. 85.

²⁶ - Ibid.

²⁷ - voir **Lexique des termes littéraires** <http://www.lettres.net/lexique/>

²⁸ - voir page web. **www Dictionnaire International des Termes Littéraires.**

²⁹ - Gérard Genette ; **Figure III** page 24.

³⁰ - Voir page Web; **Dictionnaire International des Termes littéraire**

³¹ - جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب 1992 ص 14

³² - Ibid.

³³ - Ibid.

³⁴ - voir Henri Morier ; **dictionnaire de poétique et de rhétorique** presse universitaire de France 3^{ème} édition 1981 Paris France page 545 et 544.

- ³⁵ - ينظر فرانسوا مورو، الصورة الأدبية ترجمة د/ علي نجيب إبراهيم دار الينابيع للنشر - دمشق - سوريا 1995 ص 20.
- ³⁶ - سيسيل دي لويس الصورة الشعرية ص 21
- ³⁷ - السكاكي مفتاح العلوم ص 454.
- ³⁸ - ينظر فرونسوا مورو، الصورة الأدبية ص 36
- ³⁹ - نفس المرجع والصفحة.
- ⁴⁰ - ديوان بشار، تح. محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع / الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط. 1976، 335/1.
- ⁴¹ ديوان امرئ القيس، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ط. 1972، ص 52.
- ⁴² - ابن منظور، لسان العرب مادة (خيل).
- ⁴³ - أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة مادة خيل المجلد الثاني ص 235 ص 320.
- ⁴⁴ - الجوهري إسماعيل بن حماد، الصحاح تحقيق أحمد عبد الغفور عطار الطبعة الرابعة دار العلم للملايين بيروت - لبنان - 1990 الجزء الثاني مادة صور ص 717.
- ⁴⁵ - حازم القرطاجني منهاج البلغاء تحقيق محمد الحبيب بن الحوجة الطبعة الثالثة دار الغرب الإسلامي بيروت - لبنان - 1986 ص 18.
- ⁴⁶ - المرجع نفسه ص 109
- ⁴⁷ - الصافات / 65.
- ⁴⁸ - د/ مصطفى ناصف، الصورة الأدبية الطبعة الثالثة دار الأندلس بيروت - لبنان - 1983 ص 31
- ⁴⁹ - ريتشاردز، مبادئ النقد الأدبي ص 142.

